



مؤتمر الدوحة الدولي: "التضامن والتكافل الإنساني" 20-22 أكتوبر 2009

المحور: "التضامن والتكافل الإنساني في مواجهة الكوارث في العالم (الحروب)

عنوان الورقة: دور التضامن والتكافل الإنساني في مواجهة الحروب (وجهة نظر "إسلامية")

صاحب الورقة: علي بن مبارك (باحث في الحضارات والأديان)
وحدة البحث "حوار الثقافات"، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس

البريد الإلكتروني: benmbarek.ali@yahoofr
الهاتف: 0021698825747

" وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... "

المائدة:2

"يوصي القرآن بإغاثة بني الإنسان¹
¹ والتصدق على الفقراء والمساكين"
عبد العزيز الثعالبي

تندرج هذه الورقة ضمن مبحث أعمّ يتعلّق بـ "التضامن والتكافل الإنساني ومواجهة الكوارث في العالم" ويهتمّ هذا المبحث الشامل بمجموعة من الكوارث والآفات أصبحت تمثل كابوساً مزعجاً يقلق الأفراد والجماعات ويسلب الإنسان المعاصر الأمن والاطمئنان، ولعلّ من أخطر هذه الكوارث وأشنعها الحروب التي أخذت في عالمنا المعاصر أشكالاً متعدّدة وأسماء مختلفة نتجت عنها (وما زال ينتج) مجموعة من التداعيات الخطرة التي أضرتّ بالبلاد والعباد وجعلت من الإنسان كائناً مغترباً مضطرباً يعيش الخوف الدائم والرعب الذي لا ينقضي، ونظراً لأهمية الدين في حياة الإنسان المعاصر وانتعاش البعد الروحي في مختلف أمصار العالم بما في ذلك المجتمعات العلمانية، فقد رأينا ضرورة مقاربة المسألة من منظور الإسلام ثقافة وديناً.

ويبدو أنّ موضوع هذا المؤتمر: "التضامن والتكافل الإنساني" يعكس رؤية مخصوصة في حوار الأديان تبنتها "مؤتمرات الدوحة لحوار الأديان" منذ تأسيسها، وتتمثل هذه المقاربة الحوارية في التركيز على القضايا المعيشية المعاصرة التي تهمّ المؤمنين بالديانات السماوية وتمسّ حياتهم اليومية ونمط عيشتهم وتواصلهم وإسهامهم أفراداً ومجموعات في بناء الحضارة الإنسانية²، وعلى هذا الأساس اهتمّ مؤتمر الدوحة الثالث بـ "دور الأديان في بناء الحضارة الإنسانية"³

¹ عبد العزيز الثعالبي، روح التحرّر في القرآن، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1985، ص93
² ولقد لا حظنا من خلال اهتمامنا بتاريخ حوار الأديان بصفة عامّة والحوار الإسلامي المسيحي بصفة أخصّ أنّ عدّة تجارب حوارية (ندوات وملتقيات ومؤتمرات...) سئمت طرح القضايا العقدية واللاهوتية من قبيل الوحي والنبوة والتوحيد والتثليث... الخ... واتخذت لها وجهة أخرى ركزت فيها على التحديات المعاصرة التي تواجه مؤمني كلّ الديانات دون استثناء وتحاول على ضوء ذلك على ضوء ذلك أن تقترح حلولاً عملية قد تذلل الصعوبات وتساعد الإنسان على مواجهة الكوارث والأزمات ويمكن في هذا السياق ذكر بعض المؤتمرات:

* 1999: مؤتمر: «لبنان بلد نموذجي للعالم في التعايش بين الأديان»، فقفا، تنظيم مجلس الاتحاد الكاثوليكي العالمي للصحافة. (27 جوان)
* 2000: لقاء: «العيش المشترك والتوترات الدينية»، بيروت، تنظيم الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي بالتعاون مع مجلس كنائس الشرق الأوسط، (9-11 مارس)
* 2001: ندوة "الأديان والمذاهب وثقافة السلم"، المعهد الأعلى لأصول الدين، جامعة الزيتونة (16 - 18 أبريل)
* المؤتمر الدولي، "التعاون البناء بين الأديان السماوية، إطار لإعادة الاستقرار إلى النظام العالمي"، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية وبالتعاون مع المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية (من 18 إلى 19 مارس)
* 2007: ملتقى دولي حول "العقل والإيمان من أجل عالم متضامن"، كرسي بن علي لحوار الحضارات والأديان، تونس، (من 7 إلى 9 ماي)
³ انعقد مؤتمر الدوحة الثالث لحوار الأديان يومي 29 و30 جوان، 2005

وتناول المؤتمر الرابع مسألة " دور الأديان في بناء الإنسان " ⁴ بينما عالج المؤتمر الخامس إشكالية "القيم الروحية والسلام العالمي" ⁵ ، ولقد أثر المؤتمر السادس الاهتمام بـ "القيم الدينية واحترام الحياة" ⁶ ، وجدير بالملاحظة أنّ هذه المؤتمرات تناولت في مجملها قضايا الإنسان والسلام والعيش المشترك، وهذه القضايا قريبة من هموم الإنسان المعاصر ومشاغله.

ولكنّ المشكلة أنّ موضوع "التضامن والتكافل الإنساني يطرح اليوم في ظرف صعبة يسودها التشكك والتردد والتشاؤم، أمام تعالي صيحات الصدام ونزعات الهيمنة والغطرسة التي تمارسها بعض الدول القوية بدعوى ممارسة الوصاية على الإنسان وحقوقه، وأصبحنا نعيش عالما أحادي القطب أو يكاد يفرض فيه الأقوياء لغتهم وخطابهم ومشاريعهم بما في ذلك المشاريع المتعلقة بالتضامن والتكافل الإنساني. ولقد انعكست هذه المعطيات بطريقة أو بأخرى على الخطاب العربي والإسلامي إذ ظهر اتجاهان يشكك الأول في نجاعة الحوار بين الأديان والثقافات ويتعامل بحذر مع مقولات التضامن الإنساني، بينما يتحمس الخطاب الثاني لكلّ تقارب وتتواصل بين الأديان ويبارك كلّ عمل يحقق التضامن والتكافل بين البشر جميعا وبين الخطابين يتأرجح الخطاب العقلي الناقد .

..
؟؟

2009/09/14

14 و23 د

ولقد أثار فينا الموضوع الذي اخترناه لهذه الورقة والتمثّل في " دور التضامن والتكافل الإنساني في مواجهة الحروب (وجهة نظر إسلامية)" مجموعة من الأسئلة تتمحور حول مفارقتين خطيرتين تتعلق الأولى بعلاقة الدين عامّة والإسلام بصفة خاصّة بالحرب وترتبط المفارقة الثانية بإسهامات بعلاقة "الحوار بين الأديان" في تحقيق الأمن والسلم والعيش المشترك والتضامن والتكافل.

المفارقة الأولى تقوم على التشكيك في قدرة الدين على تحقيق السلم الأهلي والتضامن بين البشر، وبنيت هذه النظرة السلبية للدين على ما يقترفه بعض المنتسبين لهذا الدين أو ذلك من حماقات وانتهاكات، ولقد احتجّ أنصار هذا التوجّه بما حدث من حروب شرسة وقف وراءها الدين وأيديها رجاله، وفي أحسن الأحوال اكتفوا بالصمت وعدم انتقاد الحروب وما تجرّه من دمار. وهذا الرأي لا يمكن دحضه مطلقا ولا يمكن لأحد أن ينكر أنّ فئة من علماء الدين اليهود والمسيحيين والمسلمين كانوا وراء اندلاع حروب أخذت طابعا سياسيا في أغلب الأحيان ، كما أنّ قسما كبيرا من المؤسسات الدينية المعاصرة مازالت بحكم تبعيتها للأنظمة الرسمية لا تقف صراحة ضدّ اندلاع الحروب ولعلّها أسهمت أحيانا في توجيه حرب ضدّ طائفة أو جماعة بدعوى الخروج على القانون أو المساس بأمن الدول .

المفارقة الثانية التي شغلنا ونحن نعدّ هذه الورقة تتمثّل في عدم تناسب جهودات الحوار بين الأديان مع واقع التواصل الاجتماعي والثقافي بين مختلف المجموعات الدينية، فبقدر ما نجد

⁴ انعقد مؤتمر الدوحة الرابع لحوار الأديان " يومي 25 و26 أبريل، 2006

⁵ انعقد مؤتمر الدوحة الخامس يومي 7 و9 ماي، 2007

⁶ انعقد مؤتمر الدوحة السادس يومي، 13 و14 ماي 2008

عددا لا يكاد يحصى من ندوات الحوار وملتقيات على كامل الوطن العربي والعالم الإسلامي، تتصاعد وتيرة العنف والرغبة في ممارسة الحرب والصدام. وهذا يدفعنا جدياً في إعادة النظر في "الحوار بين الأديان" من حيث أسسه وتداعياته ومتابعته تنزيله حيّز الممارسة الاجتماعية والتطبيقات التربوية، ويثير فينا تساؤلاً يتعلّق بمدى إسهام الحوار في تحقيقي التضامن والتكافل الإنساني.

وسنحاول الإجابة عن إشكاليات هذه الورقة من خلال مدخلين أساسيين يتعلّق المدخل الثاني بنظرة الإسلام للحروب قبل نشوبها وأثناء النشوب وفيما بعده، ولا ندّعي في هذا السياق البحثي تمثيلنا للإسلام مطلقاً (فهو أرفع وأسمى من أن يُمثل في هذه الورقة المتواضعة) لأنّ هذا الدّين متعدّد الاتجاهات ومتنوّع المقاربات ومنفتح على ما لا يمكن حصره من قراءات وتمثيلات، بينما يثير المدخل الثاني بعض القضايا "الاستراتيجية" (أو هكذا نخالها) عليها تساعدنا في فهم سياقات التضامن الإنساني وخلفيات التكافل الاجتماعي.

أولاً: "الحرب" و"ردع الحرب" من منظور إسلامي

ليس من غايات هذه الورقة أن نقف عند دلالات الحرب ومعانيها وتاريخها ولقد اضطلع غيرنا⁷ بذلك، ولكن قصارى جهدنا أن ننتبّه دعوة الإسلام للتضامن والتكافل زمن الحروب ومدى إسهام ذلك في كبح جماحها وإيجاد حلول لما ينتج عنها من كوارث وآفات، وفي هذا الإطار كان حديثنا عن "ردع الحرب" والردع لغة "الكفّ عن الشيء"⁸ ونقول "ردعه يردعه ردعا فارتدع: كفه كفا"⁹، وهذا يدفعنا إلى التساؤل: هل فكر الإسلام حقاً في "ردع الحرب" وكفّ أذاها عن الناس؟ وما هو المنهاج الذي توخّاه وما هي الآليات التي اعتمدها في ذلك؟

لا بدّ أن ننّبّه منذ البداية أنّ ممارسة المتديّنين لا تعكس بالضرورة حقيقة الدّين ومواقفه، وهذا يجعلنا نجزم أنّ ما يصدر هنا وهناك من انتهاكات لحقوق الإنسان باسم الديانات: اليهودية أو المسيحية والإسلام لا علاقة له بهذا الدّين أو ذاك بل هي ممارسات استمدّت مشروعيتها من الدّين ولكنها تعكس مصالحاً ذاتية وتكشف عن أمراض نفسية سياسية توسّعية خطيرة تتعامل مع الدّين وفق نظرة انتقائية براغماتية، ولنا في الواقع الفلسطيني خير مثال على ذلك إذ يُسرّد الأطفال وتهتمّ البيوت وتُقطع الأرزاق ويُقتل الأبرياء وتحجب عنهم الأغذية والأدوية، ولا يمكن أن نتحدّث عن كارثة إنسانية ناتجة عن حروب كذلك التي يعانيها الفلسطينيون بكلّ شرائحهم الاجتماعية وانتماؤهم الدّينية تحت شعارات دينية ومشاريع عقديّة مغلّوطة لا تعبّر بالضرورة على جوهر الديانة اليهودية ونصوصها التأسيسية¹⁰.

⁷ ويمكن أن نحيل على كتاب وهبة الزحيلي "آثار الحرب دراسة فقهية مقارنة"، دار الفكر المعاصر، بيروت 2009، وظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة 1963، واحتوى الكتاب على ثلاثة أبواب: التمهيدي تحدّث عن الحرب فعرّفها من الوجه القانوني والتاريخي والشريعة، واضطلع بـ "بيان ماهية الحرب وتاريخها والدوافع إليها" كما اعتنى في هذا الباب التمهيدي بضبط كيفية بدء الحرب. أمّا الباب الأول فتناول فيه الآثار المترتبة على قيام الحرب وتداعياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وختم الكتاب بباب ثان تحدّث فيه عن الآثار المترتبة على انتهاء الحرب.

⁸ ابن منظور، لسان اللسان تهذيب لسان العرب، مادة "عرف"، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، ج2، ص 161، ص

479

⁹ ن، ص 479

¹⁰ نجد عددا كبيرا من رجال الدّين اليهود والمنظمات اليهودية ترفض الاعتراف بإسرائيل وتندّد بأعمالها "اللا دينية"، ويمكن أن نذكر منظمة الناظوري كارتا المحافظة التي نشأت في شكل جماعة دينية منذ وهي تعارض إنشاء دولى يهودية

وحتى نفهم تمثّل الدّين للحروب لا بدّ أن نعود إلى النصوص الأصول ونحاول قراءتها وتفكيكها أفراد ومجموعات ومؤسّسات دون ممارسة الوصاية عليها ودون ادّعاء الحقّ المطلق في فهم النصّ وتمثّله، فالحقيقة لا يعرفها إلا من خلقها¹¹ والبشر وإن كانوا متساوين في البحث عنها ومحاولة مقاربتها وتحسّس بعض معالمها فإنهم متباينون في اجتهاداتهم وملكاتهم التأويلية وخبراتهم الإجرائية.

وجدير بالملاحظة أنّ الإسلام كما يتجلّى ذلك في نصّ التأسيس تعامل مع الحروب وما ينتج عنها من كوارث بطريقة استراتيجية تخضع لرؤية منهجية وتخطيط محكم ، فالقرآن نزل في بيئة ديدنها الحرب ومفاخرها الحروب، ورغم ذلك فإنّ الإسلام عمل على تجذير ثقافة السّلم حتى تكون جدارا عازلا يحول دون اندلاع الحروب وتجدها.

ولا غرابة أن يتخذ الدين الجديد له عنوان "الإسلام" ليدلّ لا فقط على ما جاء به محمّد صلى الله عليه وسلّم من تعاليم بل ليشمل أيضا كلّ الديانات السابقة التي نادى بنفس القيم من عدل وإحسان وصدق والتزام بالوعود، والجّد في العمل والمحافظة على النفس وكرامة الإنسان.. الخ. وفي هذا الإطار تحدّث محمد علي التسخيري في رؤيته للحوار مع الدّات والأخر عن "القيم الإنسانية المشتركة ودورها في تعزيز التضامن بين الشعوب والأمم"¹² ، وترتكز هذه القيم الإنسانية "الحضارية" على فكرة "الفطرة" التي يولد عليها البشر¹³ ، وربما قرّبت قيم التضامن الإنساني ما لم تقربه الإيديولوجيات والانتماءات العقدية الضيقة وعلى هذا الأساس يصبح "المسيحيّ العادل أقرب إلى المسلم العادل منه إلى المسيحيّ غير العادل، والمسلم المحسن أقرب إلى المسيحي واليهوديّ الطيب منه إلى المسلم الفظ قلبه"¹⁴.

وكما نلاحظ فإنّ اعتماد "الإسلام" عنوانا كبيرا لمرحلة دينية جديدة لم يكن صدفة، فالإسلام يعني فيما يعني الدّخول في السّلم، والسّلم في عرف اللّغة يقابل الحرب، ويفيد الأمن والأمان. ونظرا لأهمية هذا المدخل التأسيسي اتخذ الله من السّلام¹⁵ أسما له، وسميت الجنّة بدار السّلام¹⁶.

المسيح يتمركز أتباع هذه الجماعة في القدس و لندن و نيو يورك . واسم الحركة بالعبرية (שומרי הַעִיר)

وتعني "حراس المدينة".¹¹ يمكن أن نستفيد ممّا عرضه بدر الدّين الزركشي ، في كتابه "البرهان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 2001 ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ج1 ص37 " على لسان القاضي شمس الدين الخويّ : " أمّا القرآن فتفسيره على وجه القطع لا يُعلم إلا بأن يُسمع من الرّسول عليه السلام و ذلك متعذّر إلا في آيات قلائل " ¹¹ . ولقد تبنّى جلال الدين السيوطي (الإتقان في علم القرآن، دار قهرمان للطباعة و النشر و التوزيع استانبول تركيا، ص234) هذا الأمر، و على أساسه قسّم علوم القرآن ثلاثة أقسام: "علم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه و هو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه الثاني ما أطلع عليه نبيّه من أسرار الكتاب و اختصّ به و هذا لا يجوز الكلام فيه إلا له صلى الله عليه وسلّم أو لمن أذن له. الثالث علوم علمها الله نبيّه ممّا أودع كتابه من المعاني الجليّة و الخفيّة و أمره بتعليمها . وهذا ينقسم إلى قسمين منه ما لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السّمع و منه ما يؤخذ بطريق النظر و الاستدلال.."

¹² محمد علي التسخيري، القيم الإنسانية المشتركة ودورها في تعزيز التضامن بين الشعوب والأمم ، كتاب الحوار مع الدّات والأخر ، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، 2005

¹³ ن،م، ص 123

¹⁴ جوزاف زايبارات،؟؟؟؟؟؟؟؟، وقائع المؤتمر العربي الأوروبي لحوار الثقافات "الحوار الثقافي العربي الأوروبي:

متطلباته وآفاقه"، باريس، 15-16 يوليو 2002، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص 248
¹⁵ الحشر، 23: " هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ "

¹⁶ الأنعام ، 127: " لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "

واختار المسلمون لهم عبارة "السّلام" عنوان تحية وتواصل مع الآخرين، ولقد أعلن الرسول (ص) أنّ "أحبّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمان وأقبح الأسماء حرب ومرة" ¹⁷ لأنها أسماء حرب والإسلام دين سلم وسلام، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ المسلمين يكثرون من تسمية أبنائهم وبناتهم بأسماء تدلّ على السّلام من قبيل عبد السلام وسالم وسالمة وسليم وسليمة ومسالم ومسليمة وسليمة... الخ....

ورغم كلّ ما لحق المسلمين الأوائل قبل الهجرة من تعذيب وأذى من قبل قريش فإنّ الرّسول كان يمنعهم -على ما مسّه وأصحابه من سوء- من حمل السلاح والدخول في حروب ويدعوهم إلى الصّبر ولنا في "آل ياسر" خير مثال على هذه التجربة، ولقد كشفت هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة عن ضرب مشرّف من التضامن حمت بموجبه المسيحية الإسلام وحافظت على رموزه لأنها في الأصل تؤمن بتعدّد أبواب الخلاص وطرقه على عكس ما حصل لاحقا من غلق لهذه الأبواب وتضييق تلك الطرق بسبب ما حصل من انزياحات وتعديلات كان السّاسة في أغلب الأحيان وراءها.

وحتى عندما نزلت آية تجويز القتال فإنّ القرآن قرن إعلان الحرب وخوضها بالظلم والمظلومية التي مورست ضدّ المسلمين، " أذنَ لِذَينَ يُقاتِلونَ بأنَّهُم ظلموا وَإِنَّ اللهَ علىٰ نَصْرِهِم لَقديرٌ الَّذينَ أُخْرِجُوا من ديارِهِم بِغيرِ حقٍّ إلا أن يَقولوا رَبُّنا اللهُ... " ¹⁸، ولكنّ المشكلة أنّ هذه الآية وغيرها من الآيات التي تحدّثت عن "القتل" و"البيغى" و"الفساد"... أوّلت بطريقة مخصوصة تؤسّس أحيانا للحروب والصراع دون مراعاة السياقات: سياقات التنزيل وسياقات التأويل.

ولقد نتج عن هذه الانزياحات في تأويل أي القرآن وتوجيهها انزياحا آخر لا يقلّ خطورة عنه يتعلّق بمفهوم "الدار" كما ترسّخ في الثقافة الإسلامية، ولقد قسّمت "الدار" في صدر الإسلام إلى دارين : دار للاستجابة وتشمل من اعتنق دعوة الإسلام ودار للدعوة تشمل بقية الخلق دون الاستنقاص من شأنهم أو المساس من كرامتهم البشرية ولنا في رسالة علي بن أبي طالب وهو يوصي مالك بن الأشتر "النّاس صنفان إمّا أخ لك في الدّين أو نظير لك في الخلق"، ولقد تطوّرت هذه الدار عبر العصور فأصبحت "دار إسلام" و"دار كفر" و"دار حرب" و"دار سلم" ممّا يعني أنّ الفكر الدينيّ شهد مجموعة من الانزياحات الخطرة التي مسّت بجوهر الدّين ورسالته الإنسانية وأضرتّ بمتانة العلاقات بين الشعوب والثقافات وحالت أحيانا دون تحقيق الحدّ الأدنى من التضامن والتكافل الاجتماعي.

ولكي يتسنى للإسلام ترسيخ السّلم وثقافته أكد على حرية المعتقد "لا إكراه في الدّين قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ... " ¹⁹ ومحاربة التعصّب وتحقيق التعارف ²⁰ بلحظاته المعرفية الثلاث: التعريف والتعرّف والاعتراف.
- التعريف بالذّات

¹⁷ رواه أحمد في المسند (19032)، وقال محققوه: إسناده ضعيف لجهالة عقيل بن شبيب، فقد تفرد بالرواية عنه محمد بن مهاجر وهو الأنصاري، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان، وأبو داود في الأدب (4950)، والبيهقي في الكبرى كتاب الضحايا (306/9)، عن أبي وهب الجشمي.

¹⁸ الحج، 39

¹⁹ البقرة 256

²⁰ الحجرات: 13 " إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا "

- التعرف على الآخر
- الاعتراف بالنقائص والأخطاء

ولقد أكد القرآن أنّ التعارف الحقيقي يؤدي إلى التراحم بين بني البشر واعتصامهم جميعا بحبل الله وفي هذا الإطار يتنزّل شعار "ارحم من في الأرض يرحمكم من في السماء"، وهذا الشعار نجده في كلّ الديانات "السّماوية"، من ذلك نداء يسوع المسيح "طوبى للرحماء فإنّهم يُرحمون"²¹ ودعوة الربّ لبني إسرائيل في التوراة (العهد القديم) أن "أحبّوا الغريب لأنّكم كنتم غرباء في أرض مصر."²² و"لا تضطهدوا أبدأ الأرملة واليتيم والغريب والفقير ولا تضمروا في قلوبكم فعل السّوء نحو الآخر"²³ ...

ولئن ركّز القرآن على استبدال ثقافة الحرب بثقافة السلم ومواجهة الكوارث قبل حدوثها من منظور استشرافيّ استباقيّ فإنّه أيضا تحدّث عن التضامن والتكافل الإنساني في حالة نشوب حرب أو بعد انقضائها ممّا يتطلّب بادرات تضامنية أخرى ربّما دعّمت ما رايناه من وجوه التضامن في حال السلم. ولقد اعتبر الإسلام حسن التعامل مع الآخرين ومساندتهم ضربا من ضروب العبادة فأمر بالرحمة والإحسان وإغاثة الملهوفين وتفريج كربة المكروبين والتعاون على البرّ والتقوى والتواصي بالخير والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة ومحاربة الظلم والفساد وإمطة الأذى عن الطريق.

إنّ حديثنا عن التضامن والتكافل الإنساني زمن الحروب وما تفرزه من تداعيات بعد انقضائها يجعلنا نتفكّر مليّا في معاني الحرب وما المقصود بالحروب في هذا السياق؟ قد لا نبالغ إذا ذهبنا أنّ الحروب أخذت في زمننا أشكالاً متعدّدة صريحة وضمنية مباشرة وغير مباشرة، فقد تكون الحرب حرب كلام (polemic/polémique)²⁴، كما أصبحنا في عصر المعلومات والاتصالات نتحدّث عن "حروب رقمية" و"غزوات افتراضية" و"إرهاب عن بعد" وأصبحت الحرمات تنتهك في مواقع الانترنت وأصبحت الأموال تسرق من خلال اختراق الشبكات... وكلّ ذلك تطلّب من الإنسانية اليوم التفكير في إيجاد أنواع جديدة من التضامن والتكافل الإنساني تواجه به هذه "الحروب الكلامية" وتحافظ به عمّا يمكن تسميته بـ "السلم الرقمية"²⁵ ونجد اليوم عدّة قوانين دولية تحارب الجرائم الناتجة عن هذا "الحروب الافتراضية"، بل أصبحنا نتحدّث أيضا

²¹ متى: 7:5-12

7. "طوبى للرحماء، فإنّهم يُرحمون. 8 طوبى لأطهار القلوب فإنّهم يُشاهدون الله. 9 طوبى للسّاعين إلى السّلام فإنّهم أبناء الله يُدعون. 10 طوبى للمُضطهدين على البرّ فإنّ لهم ملكوت السّموات. 11 طوبى لكم، إذا شتموكم واضطهدوكم واقترؤوا عليكم كلّ كذب من أجلي، 12 افرحوا وابتهجوا: إنّ أجركم في السّموات عظيم، فهكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم."

²² العهد القديم، سفر التثنية: 19/10

²³ العهد القديم، سفر زكريا 10/7

²⁴ يعود مصطلح "polemic/polémique" إلى الأصل الإغريقي "polemikos" الذي يعني "المتعلق بالحرب" وبالفرنسية "relatif à la guerre"

(انظر: Yanoshevsky Galia, de la polémique à la politique journalistique, in Recherche et

(communication, n20, 2003

²⁵ تعملنا مع السلم باعتباره لفظا مؤثرا. "وإن جئوا للسلم فأجئ لها" : الأنفال ، 61

عن التضامن الرقمي والتكافل عن بعد، وفي هذا الإطار تأسس "صندوق التضامن الرقمي" بجنيف²⁶ وهو صندوق يهتم بتطوير منظومات التضامن والبحث عن أشكال جديدة له.

والملاحظ أنّ القرآن انطلق في نظريته للتضامن والتكافل الإنساني من مفهوم محوريّ يتعلّق بالتعاون لا بين المسلمين فحسب بل بين كلّ النّاس مهما كانت دياناتهم وثقافتهم، "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"²⁷، يمكن أن نجد للتضامن الإنساني من منظور قرآني عدّة وجوه يتعلّق بعضها بالتضامن النفسي الاجتماعي ويتمثل أساسا في مؤزرة المظلوم ومساندة قضيته والدفاع عنها في كلّ المحافل وتشجيع المنكوبين من الحرب على تجاوز أزمته وتجديد مسيرتهم وعودتهم للوضع الذي كانوا عليه أو ما شابهه، ويتعلّق بعضها الآخر بإصلاح ذات البين²⁸ " وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا "²⁹ و" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ "³⁰.

ولا نبالغ إذا اعتبرنا "التكافل الاقتصادي" من أهمّ وجوه التضامن والتكافل، إذا دعا القرآن إلى الإنفاق عند الاستطاعة على المكروب في الحروب وقد يأخذ هذا التكافل الاقتصادي المساعدة المالية أو مدّ المتضررين من الحروب بالأغذية والأغطية والملابس والأدوية وأدوات التعليم.... كما يأخذ التكافل الاجتماعي شكل العمل التطوعي والمأزرة الفكرية والمعنوية والتي تكون عادة في شكل تنظيم معارض تفضح بشاعة الحرب أو تظاهرات موسيقية وإبداعية لتجميع التبرعات لمتضرري الحرب أو الكتابة في الصحف والمجلات ومواقع الواب لمناصرة ضحايا الحروب، وينطلق الإسلام في مقاربتة لمسألة التكافل الاقتصادي من مسلمة تقول بأنّ المال ملك لله وإنّ البشر كلّهم عبيد الله وأحبته ولا يمكن بأي حال حرمانهم ممّا تكرم به الله على الخلق.

وربّما تضرّر من الحرب من لا يشدّك إليه دين أو لغة أو مصالح مشتركة بل لعه كان عدواً أو هكذا خلته، ولكنّ ذلك لا يمنع من التعاون معه والعمل على تحقيق التكافل الاجتماعي الاقتصادي في مختلف أرجاء المعمورة وهنا تنتزل فلسفة "إنفاق العفو في الإسلام"³¹ إذ " غني القرآن بالتكافل ليكون نظاماً لتربية روح الفرد، وضميره، وشخصيته، وسلوكه الاجتماعي، وليكون نظاماً لتكوين الأسرة وتنظيمها وتكافلها، ونظاماً للعلاقات الاجتماعية، بما في ذلك

²⁶ يعمل الصندوق في إطار رابطة صندوق التضامن الرقمي والتي يقع مقرها بمدينة جنيف. وعند اختتام أعمال القمة العالمية لمجتمع المعلومات في شهر ديسمبر 2003، أعلن عمدة مدينة جنيف، السيد/ كريستيان فرازيو بأن مدينة جنيف على استعداد لاحتضان الرابطة الجديدة الخاصة بصندوق التضامن الرقمي، وئداراً لإدارة صندوق التضامن الرقمي من قبل مجلس للرابطة، الذي يبلغ أعضاؤه القادمين من القارات الخمس ما بين أربعة وعشرون (24) وثلاثة وثلاثون (33) عضواً، يتم اختيارهم لمدة ثلاث (3) سنوات

²⁷ المائدة: 2

ونجد في تفسير الطبرسي (ت 548 هـ) "مجمع البيان في تفسير القرآن" ما يؤكد ما ذهبنا عليه من تأكيد على البعد الإنساني للتعاون بما هو وجه من وجوه التضامن والتكافل، يقول الطبرسي "أمر الله عباده بأن يعين بعضهم بعضاً على البر والتقوى"

عن موقع : www.altafsir.com

²⁸ جاء في الحديث النبوي " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة " ... ، فقال أبو الدرداء : قلنا بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين.. " (أخرجه أحمد رقم 27548) ، وأبو داود (رقم 4919) ، والترمذي ، (رقم 2509...)

²⁹ الحجرات، 9

³⁰ الحجرات 10

³¹ البقرة: 219 "ويسألونك ماذا يُنفقون قل العفو"

"³² ، ويعتمد "إنفاق العفو" الصدقات والندور والكفارات وعائدات الأوقاف والخمس (عند الشيعة) وغيرها من وجوه الإنفاق الشرعي الذي زاد على حاجة المؤمن. ويمكن لإنفاق العفو أن يكون في شكل مساعدات أو توفير خدمات أو تقديم منح وهبات لإعادة الإعمار وإصلاح ما أفسدته الحروب.

إن الحديث عن التضامن والتكافل الإنساني من منظور إسلامي متعدد الجوانب لا يمكن الإمام به في هذا المجال البحثي الضيق ولكننا نخلص بالقول أن الإسلام كغيره من الديانات عامة والديانات "التوحيدية" بصفة أخص حارب الأنانية وحب الذات وشجع على الإنفاق على الإنسان زمن الكوارث والآفات وتجذب تكنيز الأموال، ولذلك نجد صراعا دائما في كل الديانات بين من انتصر للمظلومين والمنكوبين ومن حاول استثمار الدين والتجارة به والثراء من خلاله وبين من يكتزون المال ومن ينفقونه "بتغاء وجه الله"³³.

ثانيا: من التضامن الإنساني إلى "أنسنة" التضامن : في استراتيجيات التضامن والتكافل

لا نبالغ إذا اعتبرنا الإنسان جوهر كل الديانات والهدف الأسمى الذي من أجله جاءت وتواصلت عبر التاريخ، والإسلام كغيره من الأديان جعل من الإنسان محور كل اهتمام مما يجعلنا نتحدث عن نزعة إنسية (Humanisme) حاول محمد أركون³⁴ رصدها في بعض النماذج من الفكر الإسلامي ، وتعني أنسنة التضامن تحريره من كل القيود العرقية والدينية والطائفية التي تجعل من التضامن الإنساني تضامنا طائفيًا ضيق الأفق في أغلب الأحيان، وجدير بالملاحظة أن أصواتا مؤثرة أصبحت اليوم تنادي بالتضامن العربي – العربي أو الإسلامي – الإسلامي بمعزل عن سياقه الكوني الإنساني ، بل بلغ الأمر أكثر من ذلك فداخل كل ديانة أصبحنا نتحدث عن تكافل مذهبي ضيق لا يرقى لحلم الديانة وسعة افقها، فالسني قد يحصر تضامنه وتكافله مع أبناء مذهبه فحسب، وفي المقابل قد يقف الشيعي فقط مع الشيعي عندما تحلّ به الكوارث وتشمله الآفات ، وكذلك الحال مع بقية الطوائف والمجموعات الدينية الأخرى، ولذلك لا بد أن نؤكد البعد الإنساني للتضامن والتكافل، وآية ذلك أن أغلب الآيات توجه بها الله للإنسان عامة "يا أيها الناس" وبحث القرآن عن حلول تضامنية تشمل الخلق كل الخلق لا من موقع مركزي باعتبار أن المسلمين كانوا "خير أمة أخرجت للناس"³⁵ بل من منظور تقديس الإنسان وتنزيلة المقام الأسمى في الكون.

و لا يتحقق هذا البعد الإنسي في فهم الإسلام للتضامن والتكافل في بعدهما الإنساني إلا من خلال رؤية استراتيجية كونية تعني بالتضامن والتكافل، ونقصد بالرؤية الاستراتيجية اعتماد مخططات واضحة ودقيقة للنهوض بمستوى "ثقافة التضامن" وعيا وأداءً. وقد يكون من

³² محمد حسين فضل الله، التكافل الاجتماعي في الإسلام/إنفاق العفو نموذجاً، الحياة الطبية العدد 12 ربيع 2003

³³ البقرة: 265 "وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرِيَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أَكْثَرُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"

³⁴ محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، دار الساقي للطباعة والنشر، بيروت، 1997

³⁵ آل عمران: 110 " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ "

المجازفة الحديث عن فهم استراتيجي للتضامن والتكافل الإنساني على مستوى هذا البحث الفردي ولكننا قصارى جهدنا أن نثير الإشكاليات ونحسّ بأهمية التفكير الإستراتيجي في هذا المجال، ونحن ندعو المنظمات العربية والإسلامية الرّسمية منها والأهلية للاهتمام بهذا الأمر ورغم وجود عدّة استراتيجيات على مستوى الألكسو الإيسيسكو³⁶ وغيرهما من الهيئات العلمية والثقافية ولكننا لا نجد طرّحا استراتيجيا واضحا يضبط التّمثلات العربية والإسلامية فيما يتعلّق برهانات التضامن والتكافل زمن الحروب وزمن السلم في عصر كثرت فيه الحروب والصراعات. وسنحاول أن نتطرّق إلى هذا المبحث التّألفي الاستشراقي من خلال اعتماد مجموعة من المداخل سنثير فيها أسئلة التضامن وإشكاليات التكافل وموضع كليهما من الإنسان من وجهة نظر الإسلام بما هو فكر وثقافة. وستكون هذه المداخل كالتالي:

- * من أجل تشكيل ذاكرة تضامنية
- * التضامن الإنساني والتحدّيات العربية الإسلامية
- * التضامن الإعلامي وحروب الإعلام
- * التربية على التضامن والتعليم التكافلي

* من أجل تشكيل ذاكرة تضامنية

يقوم الخطاب الاستراتيجي على استثمار المكتسبات والانطلاق من التجارب السّابقة قصد الانتفاع بإضافاتها وتجاوز ما علق بها من صعوبات، وعلى هذا الأساس لا يمكن التخطيط لمشاريع تضامن وتكافل دون النّظر في التجارب السّابقة التي أنجزتها حكومات أو مؤسّسات أو شخصيات مرموقة، وعلى المنظمات الرّسمية من قبيل اليونسكو والإيسيسكو والألكسو أن تفكّر بجدية في تشكيل ذاكرة تضامنية يكمن اعتمادها في تيسير التضامن والتكافل الإنساني وتوجيهه الوجهة الصحيحة ويمكن لهذا الذاكرة التضامنية أن تتشكّل من خلال عدّة سبل وفي عدّة صيغ، ومكن للمؤسّسات العلمية والبحثية الوطنية والدولية أن تشرف على مجموعة من البحوث التصنيفية التّاريخية التحليلية تهتمّ برصد ظاهرة التضامن ووجوه التكافل الإنساني في تاريخ البشرية وتقف عند محطات نيّرة من التاريخ البشري تضامنت فيها الشعوب زمن الحروب، ويمكن أن نقف في تاريخنا الإسلامي عند عدّة تجارب تضامنية مفيدة أبطالها رجال آمنوا أنّ التضامن والتكافل الإنساني يتجاوز كلّ حدود ويخترق كلّ الانتماءات، ولنا في حضارة المسلمين ببلاد الهند خير مثال على ذلك إذ استطاع المسلمون رغم نشوب حروب بينهم وبين سگان البلاد الهندوس أن يتواصلوا مع الثقافات المحلية وأن يحقّوا نوعا من التضامن والتكافل في بيئة عرفت بالتعدّد والتفاوت الاجتماعي والطبقي، ولأنّ هذا المؤتمر يندرج ضمن "حوار الأديان" وما يتطلّبه من تعارف بين المتحاورين فإنّه من المفيد أن يعرّف كلّ مشارك بتجربة تضامنية أو أكثر أو أن يقف بنا عند مقارنة طريفة تخصّ التضامن والتكافل زمن الكوارث والآفات، ولقد وجدنا في تاريخ

³⁶ وهذه الاستراتيجيات هي كالتالي:

- إستراتيجية تطوير التربية الإسلامية في البلاد الإسلامية (1988).
- الإستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي (1991).
- إستراتيجية تطوير العلوم والتكنولوجيا في البلدان الإسلامية (1997).
- إستراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب (2000).
- إستراتيجية الاستفادة من العقول المهاجرة في الغرب (2002).
- وأهملت الوثيقة إستراتيجية أخرى وهي "إستراتيجية تدبير الموارد المائية في العالم الإسلامي" التي اعتمدها المؤتمر الإسلامي الثاني لوزراء التعليم العالي والبحث العلمي المنعقد في طرابلس عام 2003 م
- استراتيجية التقريب بين المذاهب الإسلامية، 2004
- استراتيجية تطوير التعليم العالي في العالم الإسلامي، (2006)

تونس الحديث محاولة طريفة (مجهولة نسبياً) تستحق التعريف والتنويه وتتمثل في كتاب "روح التحرر في القرآن" (1904) لعبد العزيز الثعالبي³⁷.

ولقد اهتمّ الثعالبي في كتابه "روح التحرر في القرآن" بالتضامن الإنساني في بعده الكوني الشامل ، ورغم أنّ الكتاب ألف زمن الاستعمار، ورغم طبيعة العلاقة المتوترة والعدائية بين الثعالبي والاستعمار الفرنسي إلا أنه تحدّث عن "العلاقات بين المسلمين والنصارى"³⁸ ، وانتقد تحريفات المسلمين والمسيحيين على حدّ سواء لصورة "الأخر" إلى درجة "ندرك مدى الغبطة والحماس اللذين كان المسلمون يتقبّلون بهما كلّ تفسير يعمد إلى تحريف النصوص وإبراز ما تعبّر عنه من حقد وتعصب تجاه المسلمين"³⁹ ونتج عن ذلك حروب متبادلة و"هجمات القراصنة المتواصلة"⁴⁰ ممّا أضرّ بمبادئ التضامن في بعده الإنساني ونتج عن كلّ ذلك عزلة تحول دون تحقق التضامن والتكافل بين متساكني المعمورة ، ونتيجة لذلك "أغلقت أبواب الإسلام" واعتزل المسلمون في ديارهم وانصرفوا إلى شؤون دينهم"⁴¹.

وجدير بالملاحظة أن الثعالبي رغم تقدّمه الزمني (1904) أدرك أنّ وعي التضامن مسألة تأويلية بالأساس إذ "بتأويل القرآن تأويلاً سليماً ومتحرراً واجتماعياً؟"⁴² "يحصل ذلك التقارب بين الشعوب الذي كان يرمي إليه الرسول"⁴³ ، وعلى هذا الأساس طالب الثعالبي بإعادة فهم مسألة الجهاد وأعاد قراءة الآيات⁴⁴ المتعلقة به، وذهب أنّ "هذه الآيات لا تبيح إلا القيام بحرب دفاعية وهي تدعو المؤمنين إلى الإمساك عن هدر الدماء بدون جدوى وتوضّح لهم أنّ الله يمكن أن يغفر حتى للأعداء إذا وضعوا حدّاً لهجوماتهم فكيف أمكن للمفسرين أن يستخرجوا من تلك الآيات تلك المشاعر المشحونة بالحدق والبغضاء وتلك الدعوة إلى شنّ حرب على غير المسلمين"⁴⁵.

وجدير بالذكر أنّ الثعالبي استطاع أن يتحرّر من قيود الطائفية والمذهبية الضيقة وتحدّث عن التضامن والتكافل في بعده الإنساني الذي يخترق كلّ الثقافات والأديان، وعلى هذا الأساس "يوصي القرآن بإغاثة بني الإنسان والتصدّق على الفقراء والمساكين"⁴⁶.

إنّ حديثنا عن آراء الثعالبي - وإن بدت بسيطة اليوم - إسهام مئاً في تشييد ذاكرة تضامنية نعتقد بجودها وبأهميتها في دفع مسيرة التضامن الإنساني وتوجيهه الوجهة الصحيحة دون تسييس أو توظيف من قبل من يتغنون بالتضامن دون تحقيقه وينشدون أنشودة التكافل الإنساني دون ترسيخه على مستوى الواقع، وحسب رأينا فإنّ الحديث عن ذاكرة تضامنية عالمية إنسانية يعني

³⁷ مفكر وسياسي تونسيّ توفي سنة 1944 ، من كتبه "روح التحرر في القرآن" (1904) و"تونس الشهيدة" (1920) وكلاهما صدرا باللغة الفرنسية

³⁸ عنوان القسم الثامن من كتابه ، كما عنوانه معرّب الكتاب (حمادي الساحلي)، وربما كان من الأفضل استعمال "مسيحيين" عوض "نصارى"

³⁹ عبد العزيز الثعالبي ، روح التحرر في القرآن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص37 (ترجمة : حمادي الساحلي)

⁴⁰ ن،م، ص38

⁴¹ ن،م، ص39

⁴² ن،م، ص116

⁴³ ن،م، ص117

⁴⁴ تناول الآيات 90 و191 و192 من سورة البقرة

⁴⁵ ن،م، ص111

⁴⁶ ن،م، ص93

فيما يعني أنّ التضامن والتكافل مشغل كوني يهّم جميع الشعوب والأقطار الغنية منها والفقيرة، وهذا يؤدّي إلى ضرورة تحرير التضامن الإنساني من وصاية الأوصياء ودعاوى الأدعياء.

* التضامن الإنساني والتحديات العربية الإسلامية

لعلّ من أهمّ النقاط التي تثار اليوم في إطار الحديث عن التضامن والتكافل الإنساني في مواجهة كوارث الحروب تلك المتعلقة بعلاقة هذا المنزع الإنساني القديم الجديد بالواقع العربي والإسلامي، فبعض الأصوات المتشائمة تشكك في نجاعة التضامن الإنساني وتشكك في قدرة الإنسان اليوم على تحقيق التكافل وحبّتهم في ذلك أنّ العرب يجدون صعوبة في تحقيق التضامن والتكافل العربي بل نجد شعوبا عربية تقفلها الحروب وتعاني من ويلاتها معاناة تصعب على الوصف ولكّنها لا تجد تضامنا حقيقيا من قبل بني جنسها، وهذا النبرة التشاؤمية نجدها أيضا عند دعاة الوحدة الإسلامية إذ يرون أنّ التضامن الإسلاميّ - الإسلاميّ مازال بعيد المنال فما بالك بتضامن إنساني يفترض أنّه سيشمل أبناء مختلف الديانات والحضارات.

لقد وجدنا عند "رواد" التقريب بين المذاهب الإسلامية بعض الإجابات عن هذه الأسئلة العويصة، إذ أكدوا أنّ التواصل الإسلامي - الإسلامي ليس سوى مرحلة لتحقيق التواصل البناء مع كلّ البشر، وحتى ينطلق التضامن الإنساني انطلاقة صحيحة لا بدّ أن يحسم القضايا الداخليّة حتّى لا تعرقه، ولقد تقطن المسيحيون منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى أهمية ترسيخ التضامن داخل الدائرة المسيحية فأسسوا المنظّمات الشبابية والجمعيات التطوّعية وفتحوا قنوات موسّعة من الحوار المسيحي - المسيحي انتهت بعقد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني الذي اهتمّ أساسا بحلّ القضايا الداخليّة قبل أن ينطلق إلى العالم بأسره باحثا عن الحوار مع بقية الأديان والتضامن مع بقية الشعوب والأمم.

وعلى هذا الأساس لا بدّ أن نفكر على مستوى العالم الإسلامي في تفعيل الحوار الإسلامي - الإسلامي وتطويره وتذليل صعوبات حتى يتسنى لنا الحديث بأريحية عن تواصل المسلمين مع الآخر وتعاونهم معه، وفي هذا السياق يطرح السؤال التالي "هل يعقل أن ندعو إلى التسامح مع أصحاب الديانات الأخرى، ولا نطبقه بين أتباع المذاهب الإسلامية ذاتها"⁴⁷، وهذا السؤال الإشكاليّ يعكس وعيا رسميا بخطورة سياسات "حرق المراحل" والتفكير في محاوره الآخرة والتعاون معه على مجابهة الحروب وتنمية السّلم الأهلية والاجتماعية في الوقت الذي لا نجد فيه تعاونا جدّيا بين أبناء الديانة الواحدة وربّما بين مقلدي المذهب الواحد.

* التضامن الإنساني والتكافل الاجتماعي وحقوق الإنسان المغيّبة.؟؟؟

إنّ من حقّ كلّ إنسان أن ينعم بالأمن وأن يحافظ على كرامته البشرية وعرضه وأمواله زمن الحرب وزمن السّلم، وعلى أصحاب القرار اليوم أن يعملوا جاهدين على ترسيخ التضامن

⁴⁷ هذا السؤال طرحه سعادة السيّد عبد الله بن حمد العطية (النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء القطري) في كلمته الترحيبية في مؤتمر الدوحة لحوار المذاهب الإسلامية انعقد المؤتمر يومي 20 و21 جانفي 2007 بفندق شيراتون بالدوحة، ص4

اعتمدنا النسخة الرقمية المتاحة عن بعد في موقع المؤتمر:

www.qatar-conferences.org

والتكافل الإنساني في نظام عالمي جديد مجهوله كمعلومه ، وفي هذا الإطار تنتزل أهمية الدين ومؤسساته والباحثين فيه والدارسين لظواهره إذ يحتاج المرء في هذا العالم المادي إلى من يذكره بصفاء الروح وقديسية الإنسان وأهمية الأخوة الإنسانية ومن يدفعه إلى التفكير وإعادة التفكير في إنجاز أعمال تطوعية تضامنية لتفريج كربة المتضررين من حروب لم يخترها الأبرياء وبسطاء الناس وكم سعد العالم وهو يشاهد قبل شهور أفواجا من القوافل الخيرية المتجهة على قطاع غزة من كل أنحاء العالم تحمل الأدوية والأغذية وبعض الأمل لشعوب كادت الحروب تقضي فيها على كل أمل.

إنّ الإنسان جوهر كلّ مشروع تضامنيّ وعمل تكافليّ ، ولذلك اهتمت الديانات والمنظومات الوضعية به أيما اهتمام، ولكنّ الإنسان كائن متغيّر من حيث احتياجاته المعنوية والمادية وتمثلاته وآماله وانتماءات الفكرية والعقدية والسياسية ...، ومما لا شكّ فيه أنّنا اليوم نعيش مرحلة جديدة "يرى فيها الإنسان أنّ تحقيق ذاته وتحقيق طموحاته لا يتمان إلا من خلال الاعتراف بالآخر وبحقّه في الاختلاف وضرورة التعاون والتفاهم مع الآخر قوميا وعرقيا وطبقيا ودينيا لا من أجل تفادي الصراع والافتتال والحروب فحسب بل من أجل إقامة دولة العدل والاستقرار والسلام أيضا"⁴⁸ ، ولقد جلبت لنا هذه التغيّرات في فهم الإنسان وتحدياته مجموعة من المفارقات الغريبة العجيبة أصبح بموجبها القويّ ضعيفا مسكينا يدعو إلى التعاطف معه والشفقة عليه (كما هو حال الولايات المتحدة، وإسرائيل) ومؤازرته في مجابهة أشرار عزّل ولكنهم أقوى يرهبون العالم ويتحكّمون في مساره ويشكلونه كيفما شاؤوا، وتدفعنا هذا الصورة الكاركتورية إلى التساؤل من يستحقّ التأزر؟ ومن هم المعنيون الحقيقيون بالتضامن والتكافل الإنساني؟ وكيف نفهم اليوم مطمح التضامن الإنساني والحال أنّ "الأقوى خائف على نفسه وعلى ما ينعم به من رخاء وخائف على مصالحه، يعاني من نرجسية وتمجيد للذات واعتزاز بواقعه لا تقلّ خطورة عليه وعلى الإنسانية من خطورة التقليدي المتفوق في الماضي"⁴⁹

إنّ إقرار التعدّد والتنوّع أصبح مكسبا حضاريا أكدته الديانات كلّها وصادقت عليه الأمم والشعوب⁵⁰ وهذا يعني أنّ الاختلاف يوطد العلاقات بين الأفراد والشعوب والثقافات والأديان ولا يفسدها ويكرّس التضامن بينها فهو العنوان الأبرز لكلّ تضامن وتكافل، ولكن تبقى الكلمة الفصل للحكومات فهي صحبة القرار والقادرة عمليا على تحقيق المنشود وتجاوز الموجود خاصة في العالمية العربي والإسلامي حيث تهيمن السلّطات المركزية ولا تقوم مؤسسات المجتمع المدني بدورها التاريخي في تحقيق التضامن وترسيخه ثقافة وسلوكا.

* التضامن الإعلامي وحروب الإعلام

لا نبالغ إذا اعتبرنا الإعلام وما لحق به من ثورة اتصالية ومعلوماتية من أهمّ الوسائل الداعمة للتضامن أو المعرّقة له، ولقد تجلّت أهمية هذه الواجهة في السنوات الأخيرة بسبب ما نجده من تكريس في بعض وسائل الإعلام الغربي - الأمريكي لصورة المسلم النمطية كما بنتها الذاكرة

⁴⁸ هشام نشابة، التربية على معرفة الآخر والاعتراف به، وقائع المؤتمر العربي الأوروبي لحوار الثقافات "الحوار الثقافي العربي الأوروبي: متطلباته وآفاقه"، باريس، 15-16 يوليو 2002، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ن،م، ص

322

⁴⁹ ن،م، ص 325

⁵⁰ يمكن أن نذكر في هذا السياق بالإعلان العالمي حول التنوّع الثقافي، اليونسكو، 2001

المسيحية الأوروبية ورسم معالمها المخيال الديني، وفي هذا الإطار ظهرت مجموعة من الأعمال الفنية والسينمائية⁵¹ أثارت الجدل والاحتجاج من قبل المسلمين، وبناء على ذلك رأينا من المفيد في هذه السياق أن نتحدث عن دور صورة الآخر في تكريس التضامن والتكافل الاجتماعي وترسيخه في مجتمعات متباينة في ثقافتها وعقائدها وخياراتها الحضارية والسياسية، ولقد أثبتت التجارب التاريخية والحروب المتكررة أن الصورة النمطية السلبية التي يحملها كل طرف عن الآخر تحول دون التفكير في الحوار أو الرغبة في تحقيق التضامن والتكافل الاجتماعي، فكيف يمكن التعاون مع من نعتبره شيطاناً أو مجرماً أو شريراً أو إرهابياً...؟

ومما يقلق أكثر أن الخطاب الإعلامي الرسمي والمستقل بكل أشكاله يسهم في أغلب الأحيان في ترسيخ هذه الصورة المشوهة ويتحول بموجب ذلك ودون أن يدري أحيانا إلى بوق دعاية للحرب والصراع فيقدم اليهودي على أساس أنه مراب وشريك يتلذذ بألم الآخرين وتعاستهم، ويعرض المسيحي في صورة المشرك المحرف المؤمن بالخرافات، كما يعرف بالمسلم باعتباره دموياً وشبقياً وعاطفياً...، والملاحظ أن الحروب تستحضر هذه الصور وتستنفر الذاكرة الدينية بكل تراكماتها، ولا تستطيع وسائل الإعلام زمن الحروب إلا أن تستجيب لتوجهات عامة الناس، وهي توجهات عاطفية بالأساس تتحسس للحرب وتتغنى بها وآية ذلك أن "الهيئة الاجتماعية برمتها ترفض القول الناشر زمن الحرب"⁵².

ولا نبالغ إذا اعتبرنا الخطاب الإعلامي خطابي إيديولوجي بامتياز، مما يجعل أحيانا الحديث عن "التضامن الإعلامي" أو "الإعلام التضامني" ضرباً من الحلم المنشود أمام ما تمتلكه الإيديولوجيا من قدرة على "تحويل القريب إلى غريب والأخ الإنساني إلى خطر محتمل والجار المسالم إلى قوة شرسة تهدده"⁵³، وعلى هذا الأساس فإن تحصيل التضامن وتحقيق التكافل الإنساني يتطلب منا تصحيحاً للصور النمطية حتى يكون التضامن واقعياً والتكافل تلقائياً دون تصنع أو مجاملات.

* التربية على التضامن والتعليم التكافلي

قد يكون من المجازفة الحديث عن مسألة "التربية على التضامن" وما يفرزه من "تعليم تكافلي" يدرّب الناشئة على مؤازرة الآخر ومساعدتهم وتفريج كربهم خاصة زمن الحروب والكوارث، ولكننا نعوّل على تجربتنا التعليمية البسيطة واهتمامنا المخصوص ببرامج التعليم في الوطن العربي وخارجه في انتظار أن تكون هذه الخواطر "الاستراتيجية" موضوع بحث معمق من قبل المؤسسات المعنية.

ونلاحظ أن المنظومات التعليمية العربية والإسلامية الرسمية مازالت تتعامل باحترار وتردد مع مطالب "الاعتراف بالآخر" وبحقوقه الثقافية والدينية، وما زلنا نجد صعوبة على مستوى كل المراحل الدراسية في التعرف على الآخر على حقيقته لا كما رسمته الذاكرة ونحتت

⁵¹ نذكر على سبيل المثال شريط "فتنة" الذي اشرف على إعداده للنائب الهولندي غيرت فيلدرز (Geert Wilders) والذي أثار حفيظة المسلمين في كل أنحاء العالم.

⁵² هيرفي بوج (رئيس الاتحاد العالمي للصحافة الناطقة بالفرنسية)، دور وسائل الإعلام في معرفة الآخرين: صورة العربي في وسائل الإعلام الغربية، وقائع المؤتمر العربي الأوروبي لحوار الثقافات "الحوار الثقافي العربي الأوروبي: متطلباته وأفاقه"، باريس، 15-16 يوليو 2002، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص 85

⁵³ هيرفي بوج، ن، م، ص 85

معالمه كتب "الملل والنحل" ، ونادرا ما نجد دراسات علمية جديّة تستوعب الآخر وتتمثل معتقداته وأفكاره كما هي، ولئن وفق المسيحيون واليهود في ترسيخ تقليد "الاستشراق" فإنّ المسلمين لم يوقفوا في بلورة مشروع "استغراب" يمكنهم من معرفة الغرب المسيحي، على حقيقته ، وحتّى "مقدمة في علم الاستغراب"⁵⁴ التي اقترحها حسن حنفي لم تتجاوز حدود المقدمات وظلت حلما لم يتحقّق، وعلى نقبض ممّا نجده في الجامعات الأوروبية من اهتمام بعلم الإسلام (الإسلامولوجيا) أو الإسلاميات فإنّ "المسيحولوجيا" أو علم دراسة المسيحية وغيرها من العلوم المهتمّة بالأديان تبدو حلما بعيد المنال رغم وجود بحوث فردية⁵⁵ متميّزة لا تبلغ مستوى التقليد العلمي.

وبالإضافة إلى تعليم الناشئة التعدّد والاختلاف والتنوّع واحترام آراء الآخرين وسماع حديثهم والاستفادة منه، فإنّ المنظومات التربوية مطالبة أيضا بتخصيص حصص تدريب على مجابهة الآفات ومواجهة الحروب، و" إدارة الكوارث والمخاطر"⁵⁶ والاطلاع على الموثائق والمعايير المعتمدة في مجابهة الكوارث وخاصة كوارث الحروب⁵⁷، ممّا يغرس في المتعلّمين حبّ التضامن والرغبة في تحقيق التكافل الاجتماعي ويكرّس "ثقافة التضامن" بما هي سلوك وعمل وتطوّع. وهنا تنتزل أهمية العمل التطوّعي في الفضاءات المدرسية والجامعية داخل البلد الواحد وخارجه.

وفي ختام هذه الورقة المتواضعة نوّكد أنّ موضوع التضامن والتكافل الإنساني في مجابهة الكوارث عامّة وكوارث الحروب بصفة أخصّ يستجيب لأسئلة محرّجة تشغل ذهن المسلم المعاصر كما تشغل بقية البشر، ولا ندعي في الورقة الإجابة عن مختلف الإشكاليات المتعلقة بالموضوع ولكن قصارى جهدنا أنّنا أثّرنا بعض المسائل حتى نعي خطورتها وعملنا على تحقيق أكبر قدر من التعريف بوجهة نظر نخالها إسلامية بحكم انتمائنا الديني والثقافي وبحكم مجال اهتمامنا المعرفي. وكما سعينا إلى التعرّف على وجهات نظر دينية أخرى نعتقد أنّها قريبة من المنظومة الإسلامية وإن باعدت بينها الذكريات الدينية والتعصّب ونزعات التوسّع والهيمنة ، وهذا يدفعنا للاعتراف بنفائض لا بد من تداركها حتّى نسهم بطريقة فاعلة في رهانات التضامن الإنساني وتحقيق آمال فئة من البشر لم يبق لها غير الأمل في بيت آمن وسلم دائم وبال مطمئن وحروب بائدة لا تتجدّد.

⁵⁴ حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1998/2000/2002 (

⁵⁵ يمكن أن نذكر في هذا السياق بحوث حسن القرواشي وخاصة أطروحته الفكر المسيحي الكاثوليكي في مواجهة الحداثة من المجمع الفاتيكاني الأول (1869-1870) إلى المجمع الفاتيكاني الثاني (1962-1965)، صدرت عن منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2005

⁵⁶ انظر للتوسع على سبيل المثال :

- سامي محمد هشام حريز، زيد منير عبودي، إدارة الكوارث والمخاطر - الأسس النظرية التطبيقية⁵⁶، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، 2008

- محمد نصر مهنا، إدارة الأزمات والكوارث، المكتب الجامعي الحديث، 2008

⁵⁷ انظر: مجموعة مؤلفين، الميثاق الإنساني والمعايير الدنيا لمواجهة الكوارث، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2006